

التفسير والتأويل

القرآن الكريم هو مصدر التشريع الأول للأمة المحمدية ، وعلى فقه معناه ومعرفة أسراره والعمل بما فيه تتوقف سعادتها ، ولا يستوى الناس جميعاً فى فهم ألفاظه وعباراته مع وضوح بيانه وتفصيل آياته ، فإن تفاوت الإدراك بينهم أمر لا مراء فيه فالعامى يدرك من المعانى ظاهرها ومن الآيات مجملها ، والذكى المتعلم يستخرج منها المعنى الرائع ، وبين هذا وذاك مراتب فهم شتى ، فلا غرو أن يجد القرآن من أبناء أمته اهتماماً بالغاً فى الدراسة لتفسير غريب ، أو تأويل تركيب .

* * *

معنى التفسير والتأويل

التفسير فى اللُّغة : تفعيل من الفَسر بمعنى الإبانة والكشف وإظهار المعنى المعقول ، وفعله : كضرب ونصر ، يقال : فسر الشيء يفسر بالكسر ويفسره بالضم فسراً ، وفسره : أبانه ، والتفسير والفسر : الإبانة وكشف المغطى ، وفى لسان العرب : الفسر كشف المغطى ، والتفسير كشف المراد عن اللَّفظ المشكل ، وفى القرآن : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (١) أى بياناً وتفصيلاً والمزيد من الفعلين أكثر فى الاستعمال .

وقال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ أى تفصيلاً .

وقال بعضهم : هو مقلوب من « سفر » ومعناه أيضاً : الكشف ، يقال : سفرت المرأة سفوراً : إذا ألفت خمارها عن وجهها ، وهى سافرة ، وأسفر الصبح : أضاء ، وإنما بنوه على التفعيل ، لأنه للتكثير ، كقوله تعالى : ﴿ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ﴾ (٣) ، فكأنه يتبع سورة بعد سورة ، وآية بعد أخرى .

(٣) يوسف : ٢٣

(٢) البقرة : ٤٩

(١) الفرقان : ٣٣

وقال الراغب : الفسر والسفر يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما ، لكن جُعِلَ
الفسر لإظهار المعنى المعقول ، وجُعِلَ السفر لإبراز الأعيان للأبصار ، فقيل :
سفرت المرأة عن وجهها ، وأسفر الصبح .

والتفسير فى الاصطلاح : عرفه أبو حيان بأنه : « علم يبحث عن كيفية النطق
بألفاظ القرآن ، ومدلولاتها ، وأحكامها الإفرادية والتركيبية ، ومعانيها التى تُحمل
عليها حالة التركيب وتتمت لذلك » .

ثم خرَّج التعريف فقال : فقولنا : « علم » ، هو جنس يشمل سائر العلوم ،
وقولنا : « يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن » ، هذا هو علم القراءات ،
وقولنا : « ومدلولاتها » ، أى مدلولات تلك الألفاظ ، وهذا هو علم اللُّغة الذى
يُحتاج إليه فى هذا العلم ، وقولنا : « وأحكامها الإفرادية والتركيبية » هذا يشمل
علم التصريف وعلم الإعراب ، وعلم البيان ، وعلم البديع ، وقولنا : « ومعانيها
التي تُحمل عليها حالة التركيب » ، يشمل ما دللته عليه بالحقيقة ، وما دللته عليه
بالمجاز ، فإن التركيب قد يقتضى بظاهرة شيئاً ويصد عن الحمل على الظاهر صاد
فيحتاج لأجل ذلك أن يعمل على غير الظاهر ، وهو المجاز ، وقولنا : « وتتمت
لذلك » ، هو معرفة النسخ وسبب النزول ، وقصة توضيح بعض ما انبهم فى القرآن
ونحو ذلك .

وقال الزركشى : التفسير : علم يفهم به كتاب الله المنزَّل على نبيه محمد ﷺ :
وبيان معانيه ، واستخراج أحكامه وحكمه (١) .

والتأويل فى اللُّغة : مأخوذ من الأول ، وهو الرجوع إلى الأصل ، يقال : آل إليه
أولاً ومآلاً : رجع . . ويقال : أوَّل الكلام تأويلاً وتأوَّله : دبره وقدره وفسَّره ،
وعلى هذا : فتأويل الكلام فى الاصطلاح له معنيان :

١ - تأويل الكلام : بمعنى ما أوَّله إليه المتكلم أو ما يؤوَّل إليه الكلام ويرجع ،
والكلام إنما يرجع ويعود إلى حقيقته التى هى عين المقصود ، وهو نوعان : إنشاء
وإخبار ، ومن الإنشاء : الأمر .

(١) « الإتقان » (٢ / ١٧٤) .

فتأويل الأمر : هو الفعل المأمور به ، ومن ذلك ما رُوِيَ عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ يقول فى ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لى ، يتأول القرآن » (١) ، تعنى قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (٢) .

وتأويل الأخبار : هو عين المخبر إذا وقع ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ هل ينظرون إلا تأويله ، يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كُنا نعمل ﴿ (٣) فقد أخبر أنه فصل الكتاب ، وأنهم لا ينتظرون إلا تأويله ، أى مجيء ما أخبر القرآن بوقوعه ، من القيامة وأشراطها ، وما فى الآخرة من الصحف والموازين والجنة والنار وغير ذلك ، فحينئذ يقولون : ﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ ؟ .

٢ - تأويل الكلام : أى تفسيره وبيان معناه ، وهو ما يعنيه ابن جرير الطبرى فى « تفسيره » بقوله : « القول فى تأويل قوله تعالى كذا وكذا » ، وبقوله : « اختلف أهل التأويل فى هذه الآية » فإن مراده التفسير .
ذلك هو معنى التأويل عند السلف :

والتأويل فى عرف المتأخرين : هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترب به - وهذا الاصطلاح لا يتفق مع ما يراد بلفظ التأويل فى القرآن عند السلف .

هذا ومن العلماء من يُفرِّق بين المعنى ، والتفسير ، والتأويل ، للفتاوت بينها لغة وإن كانت متقاربة ، وقد نقل « الزركشى » هذا (٤) .

قال ابن فارس : معانى العبارات التى يُعبرُّ بها عن الأشياء ترجع إلى ثلاثة : المعنى ، والتفسير ، والتأويل ، وهى وإن اختلفت فالقاصد بها متقاربة :

(١) رواه البخارى ومسلم .
(٢) النصر : ٣ .
(٣) الأعراف : ٥٢ - ٥٣ .
(٤) انظر : « البرهان » (١٤٦/٢ - بتصرف) .

فأما المعنى : فهو القصد والمراد ، يقال : عنيتُ بهذا الكلام كذا ، أى قصدتُ وعمدتُ ، وهو مشتق من الإظهار ، يقال : عنت القربة ، إذا لم تحفظ الماء بل أظهرته ، ومن هذا : عنوان الكتاب .

وأما التفسير فى اللُّغة : فهو راجع إلى معنى الإظهار والكشف ، وقال ابن الأنبارى : قول العرب : فسرت الدابة وفسرتها ، إذا ركضتها محصورة لينطلق حصرها ، وهو يؤول إلى الكشف أيضاً ، فالتفسير كشف المغلق من المراد بلفظه ، وإطلاق للمحتبس عن الفهم به .

وأما التأويل : فأصله فى اللُّغة من الأول ، ومعنى قولهم : ما تأويل هذا الكلام ؟ أى إلام تؤول العاقبة فى المراد به ؟ كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ﴾ (٢) أى تُكشف عاقبته ، ويقال : آل الأمر إلى كذا ، أى صار إليه ، وقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (٣) وأصله من المأل ، وهو العاقبة والمصير ، وقد أولته فال - أى صرفته فأنصرف فكان التأويل صرف الآية إلى ما تحتمله من المعانى ، وإنما بنوه على التفعيل للتكثير .

* * *

الفرق بين التفسير والتأويل

اختلف العلماء فى الفرق بين التفسير والتأويل - وعلى ضوء ما سبق فى معنى التفسير والتأويل نستطيع أن نستخلص أهم الآراء فيما يأتى :

١ - إذا قلنا : إن التأويل هو تفسير الكلام وبيان معناه ، فالتأويل والتفسير على هذا متقاربان أو مترادفان ، ومنه دعوة رسول الله ﷺ لابن عباس : « اللّهُمَّ فقهه فى الدين وعلمه التأويل » .

٢ - وإذا قلنا إن التأويل هو نفس المراد بالكلام ، فتأويل الطلب نفس الفعل المطلوب ، وتأويل الخبر نفس الشئ المُخبر به ، فعلى هذا يكون الفرق كبيراً بين

(١) انظر : « البرهان » (١٤٦/٢) بتصرف .

(٣) الكهف : ٨٢

(٢) الأعراف : ٥٣

التفسير والتأويل ، لأن التفسير شرح وإيضاح للكلام ، ويكون وجوده في الذهن بتعقله ، وفي اللسان بالعبارة الدالة عليه ، أما التأويل فهو نفس الأمور الموجودة في الخارج ، فإذا قيل : طلعت الشمس ، فتأويل هذا هو نفس طلوعها ، وهذا هو الغالب في لغة القرآن كما تقدم ، قال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ (١) . فالمراد بالتأويل وقوع المخبر به .

٣- وقيل : التفسير : ما وقع مبيّنًا في كتاب الله أو مبيّنًا في صحيح السنّة ، لأن معناه قد ظهر ووضح ، والتأويل ما استنبطه العلماء ، ولذا قال بعضهم : « التفسير ما يتعلق بالرواية ، والتأويل ما يتعلق بالدراية » (٢) .

٤ - وقيل : التفسير : أكثر ما يُستعمل في الألفاظ ومفرداتها ، والتأويل : أكثر ما يُستعمل في المعاني والجُمْل - وقيل غير ذلك .

* * *

شرف التفسير

والتفسير من أجلّ علوم الشريعة وأرفعها قدرًا ، وهو أشرف العلوم موضوعًا وغرضًا وحاجة إليه - لأن موضوعه كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة ، ومعدن كل فضيلة - ولأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول إلى السعادة الحقيقية - وإنما اشتدت الحاجة إليه لأن كل كمال ديني أو دنيوي لا بد وأن يكون موافقًا للشرع ، وموافقته تتوقف على العلم بكتاب الله (٣) .

* * *

(٢) انظر : « الإتيان » (١٧٣ / ٢) .

(١) يونس : ٣٨ - ٣٩

(٣) انظر : « الإتيان » (١٧٥ / ٢) .